هل توبة الله فورية على التائب ؟

كتبه غريب بتاريخ الأربعاء ٢٣ رمضان ١٤٤٢

هل توبة الله فورية على التائب, بمجرد أن يتوب من الذنب, يتوب عليه الله فوراً ويغفر له؟

أم أن الله وإن كان وعد التائب بالتوبة عليه, إلا أن توبته ليست فورية لزاما, وقد يتعرض التائب لبعض العقوبة قبل أن يتوب الله عليه؟

هذه الأسئلة سوف أحاول إجابتها من خلال المحاور التالية:

- هل توبة الله فورية على التائب
- نتائج اعتقاد أن توبة الله فورية على التائب

هل توبة الله فورية على التائب

إن الجواب الذي يتبادر إلى أذهاننا عند سماع هذا السؤال, هو نعم, توبة الله فورية على التائب, بمجرد توبته يتوب الله عليه فوراً ويغفر له ذنبه.

والسبب في وجود هذا الجواب في اللاشعور, هو الاستخفاف بالذنوب عموما, نتيجة لفكر الإرجاء الذي كون وعي مخيلتنا الجمعية, فنحن في اللاشعور نعتبر أن من تاب يتوب الله عليه فورا, ولو لم نصرح بذلك, لأن السؤال هل يتوب الله فورا على التائب ليس مما يطرح عادة.

بالرجوع إلى الوحي قرآنا وسنة, نجد أن الله وعد بالتوبة على من فعل السيئة ثم تاب منها, فقال:

﴿ إِنَّمَا التَّوبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذينَ يَعمَلونَ السّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتوبونَ مِن قَريبٍ فَأُولئِكَ يَتوبُ اللَّهُ عَلَيهِم وَكانَ اللَّهُ عَليمًا حَكيمًا ﴾

[النساء: ١٧]

ولكن لا نجد أن الله يتوب فوراً على العبد بمجرد توبته, هذا بدايةً.

ثم إذا أمعنا النظر في الوحي، أنه عندنا آيات تحدثت عن توبة الله على بعض عباده، وأنها لم تكن فورية، بل كانت بعد تعرضهم لعقوبة شديدة بعد توبتهم.

أقصد كعب بن مالك وصاحبيه، الذين تابوا إلى الله عز وجل توبة نصوحاً، ومع ذلك لم تنزل توبة الله عليهم، إلا بعد أن تعرضوا لبلاء شديد، ضاقت عليهم أنفسهم بسببه وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، كما قال ربنا عز وجل:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا حَتّى إِذا ضاقَت عَلَيهِمُ الأَرضُ بِما رَحُبَت وَضاقَت عَلَيهِم أَنفُسُهُم وَظَنّوا أَن لا مَلجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلّا إِلَيهِ ثُمَّ تابَ عَلَيهِم لِيَتوبوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ ﴾

[التوبة: ١١٨]

ولنستمع إلى كعب رضي الله عنه يبين لنا بعض ما لاقوا:

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المسلمين عن كلامنا، أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمن أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فقرأته، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتياممت بها التنور فسجرتها بها، حتى إذا مضت

أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي، إذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها، قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال: فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهي عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، عز وجل، منا، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، قال: فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الناس بتوبة الله علينا، حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرسا، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتلقاني الناس فوجا فوجا، يهنئوني بالتوبة، ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، جالس في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ فقال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا سر استنار وجهه، كأن وجهه قطعة قمر، قال: وكنا نعرف ذلك، قال: فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن

من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك بعض مالك، فهو خير لك، قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت.

فتوبة الله إذاً ليست بالضرورة فورية، وليست بالأمر الذي يستخف به، أو ينال بمجرد كلمة يقولها المرء، فكعب كان صادقا في توبته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، متحملا ما يلاقيه في سبيلها.

أما الذين تخلفوا من الأعرب والمنافقين، الذين يتوبون بألسنتهم ولما يعلم الله فيهم الصدق، فقد قال ربنا عز وجل عنهم:

﴿ استَغفِر لَهُم أَو لا تَستَغفِر لَهُم إِن تَستَغفِر لَهُم سَبعينَ مَرَّةً فَلَن يَغفِرَ اللَّهُ لَهُم ذلِكَ بِأَنَّهُم كَفَروا بِاللَّهِ وَرَسولِهِ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقينَ ﴾

[التوبة: ٨٠]

فأمر التوبة إذاً ليس مجرد تلفظ بكلمات، وإنما هو رجوع إلى الله عز وجل وصدق، فمن فعل ذلك تاب الله عليه، ولكن ليس بالضرورة فوراً كما كنا نتصور، بل قد يحتاج المرء أن يعاقب عقوبة قبل أن يتوب الله عليه.

نتائج اعتقاد أن توبة الله فورية على التائب

إن هذا المعتقد الذي ورثناه بسبب الإرجاء، كان له الأثر السيء جدا في تصورنا للإسلام وللمعصية، وذلك بسبب الفهم الخاطئ لبعض النصوص اعتمادا على هذا المعتقد، وإليك بيان ذلك:

حين نقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ليصيبن أقواما سفع من النار، عقوبة بذنوب أصابوها، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، وشفاعة الشافعين، يقال لهم: الجهنميون»

فإننا نتصور فوراً أن من يتحدث عنهم الحديث، هم قوم لم يتوبوا من ذنوبهم التي أصابوها، لذلك دخلوا النار أولا حتى يطهروا منها، وهذا لكوننا نعتبر أن الله سوف يتوب عليهم فورا بمجرد توبتهم في الدنيا لو كانوا تابوا فيها.

وهذا اعتقاد فاسد، لأن توبتهم في الدنيا لا تعني أن اللّٰه لن يعاقبهم قبل أن يتوب عليهم، وما نحن بأكرم على اللّٰه من صحابة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، وقد رأينا العقوبة التي لاقوا بعد توبتهم، لذلك اعتبار أن من في الحديث قوم لم يتوبوا من ذنوبهم اعتبار فاسد.

هذا الاعتبار سوف يؤدي بصاحبه إلى اعتبار أن الإصرار على معصية اللّٰه أمر لا يخالف الإيمان، والعياذ بالله.

هذا المعتقد الأخير هو نسف للإسلام من جذوره، لأن الإسلام إنما هو طاعة اللّٰه ورسوله، فإذا جاز أن يبقى المرء مسلما وهو مصر على معصية اللّٰه، يصبح الإسلام مجرد كلمة لا معنى لها، لأن المرء سواء أطاع اللّٰه أو عصاه مصرا على معصيته، يبقى مسلماً، وهذا عين الباطل الذي بين ربنا عز وجل في قوله:

‹ أَفَنَجعَلُ المُسلِمينَ كَالمُجرِمينَ۝ما لَكُم كَيفَ تَحكُمونَ ›

[القلم: ٣٥-٣٦]

هل يستوي الذي يطيع اللّٰه، ويخافه ويرجو لقاءه، مع ذلك الذي يعصي اللّٰه مصرا على معصيته، مداوم عليها غير تائب لله؟

معاذ اللّٰه أن يكون المسلم والمجرم سيان.

يقول ربنا عز وجل:

‹ أَفَمَن كانَ مُؤمِنًا كَمَن كانَ فاسِقًا لا يَستَوونَ۝أَمَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُم جَنّاتُ المَأوى نُزُلًا بِما كانوا يَعمَلونَ۝وَأَمَّا الَّذينَ فَسَقوا فَمَأواهُمُ النّارُ كُلَّما أَرادوا أَن يَخرُجوا مِنها أُعيدوا فيها وَقيلَ لَهُم ذوقوا عَذابَ النّارِ الَّذي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبونَ ›

[السجدة: ١٨-٢٠]

إن الفاسق وهو الخارج عن طاعة اللّٰه، المصر على معصيته، في الحقيقة غير مؤمن بالآخرة، ولا الجنة ولا النار، لأنه لو كان مؤمن بها، لخاف عذاب النار ولما تجاسر على الإصرار على معصية اللّٰه، ولذلك قال ربنا أنه مكذب بالنار، بفسقه الذي استحق عليه عذاب النار.

أعاذنا اللّٰه من النار ومن سخطه وتاب علينا إنه هو التواب الرحيم.